# رد الدكتور طه حسين
# حديث الاربعاء
# فى تنظيم الثقافة

كان ظريفاً ممتعاً هذا الفصل الذي نشرته الوادى مساء الاحد الماضى للكاتب الاديب « عبد المطى المسيرى بدمنهور » يجادلنى فيه حول ما كتبته فى نقد الشعراء ، وفى ثقافة الادباء وقرائهم ، وأشهد أنى قرأت هذا الفصل مرتين ، قرأته قبل أن آذن بنشره ثم قرأته الآن قبل أن آخذ فى كتابة هذا الفصل ، ووجدت فى قراءته مرتين لذة قوية ، ومتاعا خصباً ، وأحسست إعجابا عظيما بهذا الرجل الذى ثقف نفسه كما استطاع ، لم يختلف الى مدرسة ولم يجلس الى استاذ ، ولم يستمع من معلم ، وانما تعلم القراءة والكتابة فى السوق وأخذ يقرأ ما يذاع فى العامة من هذا الادب العامى اليسير ، ثم أخذ يرقى شيئا فشيئا حتى قرأ الكتاب المصريين المعاصرين ثم الادباء القدماء من العرب ثم ما نقل الى العربية من آثار الغربيين ، وهو الآن على كثرة عمله ، وثقل أعباء الحياة عليه واتصال جده فى سبيل الحياة بضع عشرة ساعة لا يستطيع ان يستقبل النهار ، ولا ان يستقبل الليل

الاقارئاً كاتباً ، وناقداً مفكراً كل هذا خليق بالاعجاب ؛ وكل هذا خليق ان يزيل اليأس من نفوس الذين يشفقون على هذا الجيل ان يكون حظه من الرقى العقلى ضئيلا ، وكل هذا خليق ان يحملنى على أن أهنيء هذا الكاتب الاديب تهنئة صادقة بهذا الجهد الخصب المتصل ، وبهذا التوفيق العظيم الذى اتيح له وعلى ان اتمنى أن أرى كثيرين بين أهل المدن والقرى وبين أهل القاهرة ينهجون نهجه ويسيرون سيرته وينتهون الى مثل ما انتهى اليه من الفوز وهو يذكر الديمقراطية فى مقاله ويعتذر عن التحدث اليها ويجد شيئا من الحرج فى هذا التحدث . فأحب أن يعلم أنى لا أجد لذة في شيء من الاشياء كهذه اللذة التى وجدتها فى حديثه ، وفى الشعور بأن المصريين يستطيعون فى هذا العصر الحديث ، ان يثقفوا انفسهم ، وأن يبلغوا من الثقافة مثل هذا الحظ الذى بلغه . فقد كان هذا ممكنا مألوفا فى العصور القديمة ، حين لم تكن توجد المدارس المنظمة ؛ والبرامج المرسومة ، وحين لم تكن الدول تسيطر على شئون الثقافة والتعليم وتقيسهما بمقياس الشهادات والاجازات وحين لم تكن الحضارة الاجتماعية قد استطاعت ان تلغى ارادة الفرد ، وان تضيقها ، وأن تعود الافراد ان يعتمدوا على التعليم المنظم المهيء ، الذى يقدم اليوم فى المدارس كما يقدم الطعام الى الاطفال ، أما الآن فقد اصبح اعتماد الفرد على نفسه ضئيلا فى الدرس والتحصيل ضئيلا فى الحفظ والاستظهار

ضئيلا فى جميع فروع الحياة المادية كلها ، واصبح من النادر جداً أن تجد رجلا يعتمد على ذاكرته وعقده القلم والدفتر ، أو يعتمد على نفسه فى التعلم وعنده المدارس ومن فيها من الاساتذة والمعلمين فلا غرابة إذن فى أن نعجب بالكاتب الاديب ، وفى أن نتمنى ان يكون أمثاله كثيرين بين المصريين ، ولا غرابة في ان نجد فى قراءته اللذة والمتاع ، وفى ان اهدى اليه اجمل الشكر ، واصدق التمنيات ، وأحمد له هذه الساعة الحلوة التي اتاحها لى ، حين كتب إلى هذا الكتاب الظريف ، ولكنى احب ان يفهم الكاتب الاديب ان قراءته هذه المضطربة التى لم يعتمد فيها على نظام ، ولم يتقيد فيها بمنهاج ، قد أغنته ، وأتاحت له ثروة أدبية لا بأس بها ؛ ولكنها قد أساءت اليه بعض الشيء ، فجعلته متفائلا اكثر مما ينبغي ، ودفعته الى أن يقدر الاشياء قدراً ربما لم يكن مستقيما فى جميع الوجوه . هو قد قرأ ، وجد فى القراءة ، واستفاد منها ، فيخيل اليه أن الناس كلهم يقرأون كما قرأ ، ويستفيدون كما استفاد ، وهو إذن لا يصدق ، أو لا يكاد يصدق ، أن المتعلمين والمعلمين ينفقون وقتهم في العبث والحديث وألوان الراحة ؛ لا يحفلون بالقراءة ولا يعنون بها ، لأنه هو لا يحفل إلا بالقراءة ولا يهتم إلا للقراءة ، واذا كان هو على جهله القديم قد فعل هذا كله ، وما زال يفعله ، فهو لا يستطيع ان يؤمن بأن الذين تعلموا أو اتخذوا التعليم مهنه وصناعة يرضى أن يكون حظهم من الجد في الدرس ، والعناية بالقراءة اقل من حظه ،

وإذن فمادام هو يقرأ خمس صحف يومياً ، ومجلتين في كل يوم ، ومادام لا يصبح إلا مع كاتب أو شاعر ، ولا يمسى إلا مع عالم أو أديب ولا يجلس إلى مائدته إلا وحوله جماعة من اصحاب الفكاهة والنقد اليسير ؛ فغيره من المتعلمين خليق أن يقرأ عشر صحف ، وار بع مجلات ، وأن يصبح مع كتاب أو شعراء ، ويمسى مع علماء أو أدباء ويجمع حول مائدته أصنافا من النقاد واصحاب الفكاهة ، واكبر الظن أن الكاتب الاديب لم يفارق دمنهور ، ولم يزر القاهرة والاسكندرية ، أو لم يزرها الالماما ، ولو أنه تردد عليهما ، واقام فيهما واختلفت بعض الشيء الى ما يقوم فيهما من الاندية والقهوات ، واتصل من قريب أو بعيد بمن يعيش فيهما من المتعلمين والمعلمين لأشفقت عليه أن يناله شيء غير قليل من الاعجاب بنفسه حين يقيس سيرته الى سيرة المتعلمين فى المدارس النظامية ، وحين يوازن بين ما حصل وما حصلوا ، وبين الوقت الذى ينفقه فى الجد والكد ، وبين الوقت الذى ينفقونه فى الراحة والعبث والحديث ، ولأشفقت عليه أن يبلغ اليأس الى قلبه البرىء ، ويصل الحزن الادبى الى نفسه التى يظهر انها لم تعرف الحزن بعد ، فليطمئن الكاتب اذن الى ماحدثته به من انصراف المستنيرين عندنا عن الثقافة ، واهمالهم للقراءة ، وزهدهم فى التحصيل ؛ فانى لم أحدثه الا بالحق ، وان كان الحق مراً ، مؤذيا ، وليست الشجاعة ان ننكر الحق لأنه مر ، أو نفر منه لأنه يؤذى ،

وانما الشجاعة أن نستقبل الحق كما هو ، وأن نصلح من أمرنا ما يحتاج الى الاصلاح ، فضعف الثقافة عندنا وضعف الميل اليها ، والرغبة فيها والجد فى تحصيلها ، امر واقع لا سبيل الى الشك فيه ، على ان الامر الذى احب أن يلتفت اليه الكاتب الاديب ، وغيره من المتفائلين هو ان من الخطر حقاً أن نرضى عن انفسنا الى هذا الحد ، وأن نطمئن الى ما بلغنا من الرقى ، وما زلت اقول له ولغيره من المتفائلين ما قلته للآنسة ( مى ) من ان الاديب الذى يستحق هذا الاسم ، والرجل الذى يستمتع بحظ من الحياة ، خليقان ان لا يرضيا ؛ ولا يطمئنا ، فان الرضى والاطمئنان وسيلة الكسل وسبيل الى الخمود ومطية الى الغرور والعجب ، وويل لجيل تقوم حياته على الكسل والخمود ، وعلى الغرور والعجب ، وما دمنا نبتغى المثل الاعلى دائما ؛ فالمثل الاعلى شرود لا يحب أن يبلغه الناس ، ولا ينتظرهم حتى يبلغوه ؛ وانما هو ينأى عنهم كلما دنو منه . ويفلت منهم كلما هموا أن يدركوه لأنه يريدهم على أن يمضوا دائما ، ويكره لهم الوقوف ولا يحب لهم الرضى والاطمئنان ، فهبنا بلغنا من الثقافة حظا حسنا ، وأخذنا منها بنصيب موفور فان فوق هذا الحظ الحسن ، حظا آخر أحسن منه ينبغى أن نسعى اليه ، وفوق هذا النصيب الموفور نصيباً آخر أكثر منه خصباً ومتاعا ، ويجب أن نجد فيه ، والمثقفون جميعاً فى أقطار الارض يستزيدون من الثقافة ولا يرضون بما يتاح لهم منها فلا ينبغى أن

نتكسل والناس نشيطون ، ولا أن ننام والناس ايقاظ ، ولا أن نرضي عن انفسنا والنـــاس على انفسهم ساخطون ، ثم أحب أن يلتفت المتفائلون جميعاً والذين يخيفهم التشاؤم فى أمر الثقافة الى أن الثقافة التى يخاف عليها من النقد و يشفق عليها أصحابها أن تفتر همتها لان كاتبا من الكتاب يراها ناقصة ، أو غير مرضية ليست هى الثقافة المرضية حقا وليست هى الثقافة القوية التى تثبت للنقد ، وتستطيـــع أن تتلقى الاحداث ولا تفزع من الخطوب وانما هى ثقافة كنار الورق يطفئها ايسر النسيم ، وما ينبغى أن تكون ثقافتنا بهذه المنزلة من الضعف ولا أن تكون أشبه شىء بالضوء الضئيل ينبعث من السراج الصغير ولا يكاد يثبت لأيسر النسيم ؛ وبعد هذا كله أريد أن يلتفت الكاتب وغيره من المتفائلين الى أن حياة الناس قد تغيرت منذ عهد بعيد وأصبح من الحقائق الواقعة ان التعليم والتثقيف من الامور الاجتماعية التى لا تترك كلها للافراد وجهودهم الخاصة وانما تقوم الجماعة بتنظيم مقدار منها تفرضه على الناس فرضا وتجعله شركة بينهم لانه يكون وحدتهم العقلية والخلقية فيكون بذلك نفسه وحدتهم الوطنيـــة والسياسية ، وهذا المقدار المشترك من الثقافة هو الذى ينهض به التعليم الاولى والثانوى ، فلابد اذن من العناية بهذين النوعين من التعليم لانهما يصوران الحد الادنى للثقافة ، يصوران هذا المقدار الذى لا ينبغى أن يكون فيه تفاوت ولا اختلاف بين الناس ، وما دام القانون

لا يبيح للناس ان يدعوا ابناءهم دون أن يعطوهم حظهم من التعليم الاولي ومادام القانون لا يبيح للناس ان ينهضوا بهذه العمل ، وذلك من الاعمال العامة الا اذا استكملوا أدواته وهيأوا انفسهم له بما ينبغي من التعليم ، فلابد اذن من العناية بهذا التعليم كأحسن ما تكون العناية ، ومن جعله صالحا لتكوين الرجل الذى يستحق هذا الاسم ، ولتمكينه من أن يستقبل الحياة استقبال من يفهمها فيحسن فهمها و يثبت لما ستلقاه به من الاحداث والمشكلات ، فليس علينا بأس حين نلاحظ أن تعليمنا ردىء أو أن ثقافتنا ناقصة مادمنا نستطيع أن نجعل هذا التعليم خيرا مما هو الآن ؛ وأن نجعل هذه الثقافة أوسع وأعمق ، وارقي مما هي الآن ومن المحقق الذى لا شك فيه أن فساد التعليم وضيق الثقافة والاكتفاء بظواهر الامور ، والعجز عن تعمقها كل هذه الخصال يدعو الى ان يكثر الغرور فى طبقات المتأدبين ، و يفشو الادعاء المريض والي أن يظهر من يرى نفسه أديبا وليس هو من الادب في شيء ، ومن يري نفسه شاعراً ، وليس هو من الشعر بسبيل ، ذلك لانه لا يجد من الناس الذين يعيشون حوله و يقرأون شعره أو نثره نقاداً مثقفين يحسنون التبصر بمحاسن الشعر وعيوبه ، و بجودة النثر ورداءته ، فلا يقبلون منهما الا ما ينبغى ان يقبل ، ولا يحسنون منهما ما هو مبتذل مرذول .

والكاتب الاديب يذكرني كما ذكرني غيره مرات بكلام

قلته أيام الصبا ونشرته لى الصحف . وكنت أراه ادبا ؛ وكنت عنه راضيا ، وكانت الصحف تراه أدبا . وكانت تنشره إما لأنها كانت ترضى عنه ، وإما لأنها كانت تحتاج اليه لتملأ بعض انهارها الفارغة ، والكاتب الاديب ينقد هذا الكلام ؛ كما نقده غيره ، ويدعونى كما دعانى غيره الى أن أوازن بين هذا الكلام الذى كنت أرسله الى الصحف منذ ربع قرن و بين ما ينشره الشباب المتأدبون فى هذه الايام ، و يظن الكاتب الاديب كما يظن غيره أنى ان رجعت الى ما كنت أهذي به أيام الصبا عذرت الادباء من الشباب ؛ وقد يكون هذا حقاً ، لولا أن حياة المصريين قد تغيرت منذ ربع قرن ، وأن ما كان يقبل من الشباب ومن الشيوخ أيضاً فى أول هذا القرن لا ينبغى أن يقبل منهم الآن ، فاننا لم نقض من حياتنا خمساً وعشرين سنة نائمين ، وانما قضيناها أيقاظاً نعمل ، ونجد ونكدح ، ونبذل ما نملك ، لنصلح من امرنا ونرقى بحظنا من العلم والادب والحضارة ، ولا ينبغى أن نطلب منا الآن أن نرضى بما كنا نرضى به منذ خمسة وعشرين عاما ، والفرق بين الشباب الادباء الآن و بين الشباب الادباء فى أول القرن اننا كنا نكتب و ننظم ولا نجد من النقاد من يحاسبنا حسابا دقيقاً على كل ما كنا نهذى به من النثر والنظم فكان منا من يملؤه الغرور فيرى نفسه كاتبا ؛ أو يرى نفسه شاعرا ، لان مقياس التفوق في ذلك الوقت كان رضا الصحف و إذاعتها لما يرسل

اليها ، ومنا من أتيح له حظ من ذوق ونصيب من فهم ، ومنح قدرة على نفسه ، وتسلط على طبيعته فاستطاع أن يتبين أن ما كان يهذى به لغو ، وأن ما كان يرضى عنه غرور ، فأعرض عما لم يكن يحسن الى ما كان يستطيع أن يحسنه وكذلك تستطيع أن تتتبع تاريخ جماعة من الاشخاص الظاهرين فى حياتنا الآن فستري انهم كانوا فى أول هذا القرن يرون انفسهم كتابا أو شعراء يرسلون الى الصحف الفصول الطوال والقصائد التي لا تنتهى ، ثم بدا لهم فرأوا انهم كانوا يمنون بما لم يخلقوا له ، فانصرفوا الى ماهم ميسرون له .

على هذا النحو يا سيدى تستطيع أن تنظر الى هذا الشعر الذى تذكرنى به استغفر الله ، بل الى هذا النظم الذى تذكرنى به ، فليس هو من الشعر في شيء ، ولو أنى وجدت في تلك الايام ناقداً يردنى عن هذا السخف لضقت به بعض الشيء ، ولكنى كنت خليقاً أن أحمد له شدته وحزمه ، لأنه نهنى إلي ما كان يحسن أن أنبه اليه ، وصرفنى عما كان ينبغى أن لا أمعن فيه ، ومع ذلك فأنت حين تذكرنى بهذا الكلام لا تسوءنى ، ولا تغيظني وانما تحسن الي وتصيب من نفسى موقعاً حسناً ، لانك تذكرنى بتلك الايام الحلوة التى كنا نجد فيها لذة النشاط والجد ، ولا نذوق فيها مرارة هذا النشاط والجد .

وأنا مؤمن بان ما ينتجه الشباب اليوم خير مما كنا ننتجه فى

أول القرن ، ولكني على ذلك مؤمن بأنه بعيد كل البعد عن أن يكون مرضياً ، وبأنه خليق أن ينقد فى حزم وصرامة وشدة ، وأن مقياس ما ينبغى للشباب من الاستعداد الحسن للانتاج القيم هو ثباتهم لهذا النقد وصبرهم عليه وانتفاعهم به ، فاذا رأيت شابا ينقد شعره ؛ فيدع الشعر ، وينصرف عنه فاعلم انه ليس شاعراً ، وليس بينه وبين الشعر سبب لأن الشاعر حقا لا يخيفه النقد الى هذا الحد ، ولا يسرع اليه اليأس على هذا النحو ؛ وشيطان الشعر أشد سلطانا على نفسه وأكثر امتلاكا لقلبه من أن يخيفه ناقد مهما يكن ، أو يرده عن الشعر نقد مهما يكن عنيفا ، ثقيلا ، ليس على الشعراء المجيدين بأس لا من ظلم النقاد ، ولا من انصافهم فهم شعراء وهم ماضون فى سبيل الشعر ، وهم منتهون الى حظهم من الاجادة مهما تكثر امامهم العقبات وأؤكد لك انى لم أحزن حين رأيت الدكتور ناجى يعلن زهده فى الشعر لأنى قدرت أن الدكتور ناجى أن كان شاعراً حقاً فسيعود الى الشعر راضياً أو كارها سواء ألححت عليه فى النقد أو رفقت به ، وأن لم يكن شاعراً فليس على الشعر بأس فى أن ينصرف عنه ، ويزهد فيه وأنا منتظر أن يعود الدكتور ناجى الى جنة الشعر ، فانى أرى فيه استعداداً لا بأس به ، وأظنه أن عني بشعره واستكمل أدوات الفن خليقاً أن يبلغ منه شيئاً حسناً . لا تجزع إذن ياسيدى من النقد ولا تظن أن عمل الناقد يجب أن يكون البناء دائما فقد يكون من

الخير أن تهدم بعض الابنية التي تحجب الضوء والهواء عن أبنية أخرى هي أحق بالبقاء ، ، وليس عمل البستاني غرساً للازهار والاشجار دائما وانما بعض عمله فيما أظن اقتلاع لبعض الاشجار ولبعض الاعشاب التي تفسد ما هو احق منها بالبقاء ، وأجدر منها بالنماء ، وأقدر منها على أن ينفع الناس .

ولست أدري لم يكون البستاني مصلحاً حين يجتث الشجرة الفاسدة أو يقتلع الاعشاب المهلكة لما حولها ويكون الناقد مفسداً حين يرد عن الادب قوما يدخلون في الادب ؛ وليسوا منه في شيء ، ولست ادري لم يكون البستاني مصلحا حين يشذب بعض الاشجار ويقص بعض الاغصان ، وينزع بعض الورق ، ويكون الناقد مفسداً حين يهذب ما ينتجه الكتاب والشعراء .

كلا ياسيدي ، ليس على الادب بأس من النقد مهما يقسو ويشتد ، وانما البأس كل البأس على الادب من النقد اذا هان ولان واصبح تقريظا وثناء واثارة للغرور وتشجيعا للدخلاء والادب الذي لا يثبت للنقد العنيف لا يستحق أن يكون أدبا ، ولا يستحق أن يعنى به أحد ، أرأيت اني أحسن منك ظنا بالادب والادباء وأجمل منك رأيا في الثقافة والمثقفين أرى أدباءنا رجالا يستحقون النقد وتراهم أنت اطفالا لا يستحقون المداعبة .. هون عليك فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض ، ولقد عمد نقاد قساة غلاظ

مسرفون فى العنف الى بعض الشعراء والكتاب فالحوا عليهم فى النقد واشبعوهم تجريحا ؛ وطعنا ولكن الأدباء مع ذلك ظفروا بالبقاء ، وذهب نقد النقاد هباء ، فمن كان من ادبائنا خليقا أن يبقى وينتج وينفع الناس فليس عليه بأس منك ، ولا منى ؛ ولا من غيرنا ، ولعله أن يظفر من الحياة والخلود بما لا نظفر نحن منه بالقليل

اما بعد فانى اشكر لك ياسيدى ثناءك علي وحسن ظنك بى وأترك احكامك كلها علي كتابنا وأدبائنا ، لك لا اجادلك فيها ، ولا احاورك لان جدالك فيها ينتهى الى كثير جدا مما لا نريد

طه حسين